وتوجيهها حسبما يريد، فشرع الله إنما يهدف إلى حماية الإنسان من شرور نفسه أولاً فهو يريدها نفساً مطمئنة تأمر صاحبها بالخير وتحثه عليه، نفساً قد خلصت من الشوائب والجواذب ومن هواجس السوء ووساوس الشيطان يريدها نفساً تمحضت للخير ونذرت حياتها عليه كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ١٦٢].

* * *

حديث النفس معفو عنه ولكن!

وقد يقول قائل: هذه الظنون التي تجول بالنفس لا أستطيع دفعها أو منعها كما أن الله عز وجل قد تجاوز عن ذلك وعفا عن حديث النفس ما لم نتكلم به أو نفعل كما ورد ذلك في الحديث المتفق عليه: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل**».

ولكننا نقول: حتى لو أن الله عز وجل قد عفا عن ذلك وتجاوز عنه فلا ينبغي أن نأخذ من ذلك رخصة ونلقي للنفس بالحبل على الغارب فنسترسل مع هواجس السوء ونستسلم لها ونتمادى فيها بل يجب أن نقف لها بالمرصاد ونقاومها من البداية وقبل أن تتمكن من القلب ويصعب التخلص منها.

فحافظ على طهارة قلبك أن تخدش أو تمس ولا تترك المجال لخواطر السوء لتنمو وتزداد وإلا فإنها تتخمر وتتبلور وتلقي بزبدها وتصيب الأبرياء بشررها لأنك لم تطردها من أول الأمر بل رحبت بها وهششت لقدومها فانتفشت وانتعشت وعششت في النفس وتربعت على عرش القلب حتى أصبح سوء الظن هو الأصل وتحول الأمر من عرض عابر إلى مرض لازم كالوسوسة في الوضوء أو كالهواجس و لظنون التي تأتيك وأنت تصلي فالشيطان يريد أن يفسد عليك صلاتك كما يريد أن يفسد عليك

علاقتك مع إخوانك فكن على حذر فمعظم النار من مستصغر الشرر!

وهكذا تتبين لنا مسئولية المسلم نحو نفسه بأن يعودها على أحاديث الخير وينأى بها عن التحدث بالشر أو الانشغال به فمتى تمكن سوء الظن من القلب وكثر تحديث النفس به فلا بد أن يظهر أثر ذلك على اللسان والجوارح ويخرج ضرره إلى أرض الواقع لأن هذه الظنون السيئة قد استوطنت في القلب واستقرت به زمنًا طويلاً وهذا من شأنه أن يحمل صاحبه على قول ما لا ينبغي وفعل ما لا يليق .

فحافظ على نقاء قلبك وأن يلقى فيه ما يخدش حياءه أو يعكر صفوه ونقّه من الشوائب التي تصب فيه ومحّصه من الهواجس التي تعتريه ، فالقلب رقيق والتأثير عليه وتغييره سهل ويسير فما سمي القلب قلبًا إلا من التقلب والتحول فاحفظ قلبك واقطع دابر الظنون يسلم لك دينك وتنعم في دنياك بصلاح البال ويرضى عنك مولاك .

* * *

سوء الظن غيبة القلب

إذن فسوء الظن حرام كسوء القول فكما نهانا ربنا عز وجل عن الجهر بالسوء من القول فإنه قد نهانا هنا أيضًا عن سوء الظن الذي ينعقد في القلب وكما يحرم عليك أن تطلق لسانك بالحديث عن مساوئ الآخرين فإنه يحرم عليك أيضًا أن تحدث نفسك بحديث تسيء فيه إلى أخيك لو تكلمت به .

فسوء الظن إنما هو هتك لستر الغير بدون وجه حق ، واعتداء على حرمته من غير جريرة جناها أو ذنب فهو نوع من الغيبة المحرمة ويمكن أن نسميها غيبة القلب أو غيبة بالقلب كما أن التجسس المنهي عنه أيضًا في الآية هو غيبة العين أو غيبة بالعين كما أن غيبة اللسان هي ذكر العيب بظهر الغيب ولذلك بدأ الله عز وجل آيتنا هذه بالأمر

باجتناب سوء الظن ثم أعقب ذلك بالنهي عن التجسس ثم بالنهي عن الغيبة فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، فكما يحرم عليك أن تذكر أخاك للناس في غيابه بسوء فإنه يحرم عليك أيضًا أن تذكره لنفسك بسوء.

وفي قوله عز وجل: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] فمع أن قليل الظنون هو الذي يجعلك تأثم إلا أن الله عز وجل أمرنا باجتناب الكثير من الظن وأبهم ذلك الكثير ولم يعينه لأننا لا نعلم على وجه اليقين أي الظنون باطل وأيها خير؟ ولذلك ينبغي على المؤمن تمحيص كل ظن يعرض له حتى يعلم وجهه فإبهام الكثير من الظن إذن إنما هو من باب سد الذرائع وليحتاط المؤمن ولا يتمادى فيما يرد على ذهنه من الظنون والهواجس قبل أن يعرف من أي نوع من الظنون هي؟

ففي التكليف على هذا النحو فائدة جليلة وهي: ألا يجترئ المؤمن على ظنٍّ ما حتى يتبين عنده هل هي من الظنون المباحة التي يصح اتباعها أم من الظنون المحظورة التي ينبغي اجتنابها؟ ففي الحديث المتفق عليه: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» وما ذلك إلا لأن الأحاديث الواردة موارد الظنون الآثمة إنما هي أحاديث يغلب عليها طابع الكذب والافتراء أكثر من أي أحاديث أخرى فأكثر الظنون إنما ينبني ويقوم على هوى النفس ووساوس الشيطان.

فالمراد بالحديث في قوله ﷺ: «**فإن الظن أكذب الحديث**» هو حديث النفس فإنها أمارة بالسوء، تملي لصاحبها من وحي خيالها أوهامًا لو عرضت على الرجل الحكيم ذي العقل السليم لَوأدها في مهدها ولقضى عليها إبّان ورودها ولما أطلق لها العنان أو تركها لحظة تغادر الخيال كما أن مجيء النهي عن التجسس والغيبة بعد الأمر باجتناب الظن يبين لنا أن المراد بالظن الذي ينبغي اجتنابه هو الظن السيئ الذي يؤدي

إلى التجسس وتتبع العورات وإلى اغتياب حرمات الناس وهو الظن الذي يوقع في الإثم ويعكر صفو الإيمان.

ولكي يتبين لك ذلك جليًا واضحًا انظر إلى بقية الحديث التي ختم بها كما في رواية الشيخين: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**» وزاد مسلم: «**ولا تنافسوا ولا تحاسدوا**» وصدق الله إذ يقول: ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم: ٢٨].

* * *

حرمة المؤمن وحرمة الكعبة

وكما أن اغتياب الناس باللسان من الكبائر والمحرمات فكذلك حديث النفس الذي يحاك في الصدر ويتردد في القلب فإنه مما يحاسب عليه المرء ولو لم يحرك به لسانه! وانظر في ذلك إلى قوله عز وجل وهو يتكلم عن مكانة البيت الحرام: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥] فقد علق الله العذاب الأليم لا على الفعل بل على مجرد الهم والإرادة والنية الآثمة.

وانظر إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه والترمذي وكذلك الدارمي في «سننه»: عن عبد الله بن عمرو قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيبك وأطيب ريحك وما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك: ماله ودمه وألا يظن به إلا خيرًا**».

فانتهاك حرمة المؤمن من دم أو عرض أو مال لا يقل إثمًا ولا جرمًا عن انتهاك حرمة الكعبة المشرفة بل حرمته تفوق حرمتها بنص الحديث السابق! فزوال الدنيا أهون عند الله من قتل المؤمن وسفك دمه ففي حديث النسائي والترمذي وابن ماجه: «**لقتل مؤمن**

أعظم عند الله من زوال الدنيا» وفي حديث البخاري: «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا» وفي حديث الترمذي: «لو اجتمع ـ وفي رواية: «لو اشترك» ـ أهل السموات وأهل الأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله على وجوههم في النار» وفي حديث أحمد وابن ماجه: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقي الله مكتوبًا بين عينيه: آيس من رحمة الله تعالى» .

وأيضًا في حديث أحمد والنسائي: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا» وفي الحديث المتفق عليه: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» فالمؤمن له مكانة عظيمة عند ربه عز وجل فهو كما ورد في الأثر بنيان الله في الأرض وملعون مَن هدم بنيان الله فقد قال عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] .

فالكعبة بيت الله وقد هدمت من قبلُ مرات وجرفتها السيول مرات أخرىٰ وأعيد بناؤها من جديد كما انتزع القرامطة الحجر الأسود ثم أعيد مرة أخرىٰ إلىٰ مكانه أما الإنسان الذي يقتل وتزهق روحه بدون وجه حق فهل يستطيع أحد من البشر أن يعيده إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ وقد صعدت روحه إلىٰ بارئها تشكو مَن قتلها وتقول: يا رب سله فيم قتلني؟ كما ورد في حديث أحمد وغيره.

ونحن لا نهون من شأن الكعبة فشأنها عظيم وكذلك حرمتها ولكن علينا أيضًا ألا نستهين بحرمة الإنسان الذي خلقه الله بيديه وكرمه وأسجد له الملائكة وسخر له ما في الكون لخدمته ومنفعته وذلك لأنه حين استهين بحرمة الإنسان سال نزيف الدماء علىٰ الأرض شلالا لا يرفأ وأنهارًا تجري ولا تتوقف وقد قال النبي ﷺ في حجة الوداع وهو يخطب في البلد الحرام كما ورد في الحديث المتفق عليه: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم

هذا، ألا هل بلغت؟» ثم وصاهم بقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وفي الحديث المتفق عليه: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده» ولن يسلم الناس من لسانه ويده إلا حين يستقيم قلبه فينصلح حاله ويسلم الناس من شروره وأذاه وفي حديث مسلم: «إن الله لا ينظر إلى أموالكم ولا إلى أجسامكم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم» فالقلوب هي محل التقوىٰ والإيمان وهي المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله فالقلب هو الأصل وما عدا ذلك إنما هو صورة اللحم والشحم.

ولكننا نجد كثيراً من الناس يعظمون حرمة البيت الحرام وهو بالفعل حرمته عظيمة ونراهم يتوقون لزيارة الكعبة الشريفة بينما لا يرىٰ أحدهم بأساً في احتقار أخيه المسلم والحط من شأنه والتعالي والتطاول عليه وعدم نصرته !! ألم يسمع أمثال هؤلاء لقول الرسول ﷺ في حديث مسلم والترمذي: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ولا يسلمه ولا يكذبه ولا يخونه، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» ثم قال: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله».

كما أن هناك من أغنياء المسلمين من يحج كثيراً ويعتمر كل عام وينفق الكثير من المال في زيارة البيت الحرام مع أنه أسقط عنه حجة الإسلام ويزاحم الناس ويفعل ذلك بينما كثير من إخوانه المسلمين لا يجدون ما يقيمون به أودهم أو ما يستر عورتهم بل قد يكون جاره جائعاً وهو لا يدري لأنه لا يتفقد أحواله ولا يسأل عنه ونسي قول النبي ﷺ كما روىٰ أحمد والحاكم والطبراني والبيهقي وأبو يعلىٰ والبخاري في «الأدب المفرد»: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم» وفي رواية: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه». وفي رواية أخرىٰ: «أيما أهل حي بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله».

* * *

البيت الحرام وضع للناس

ثم إن الله عز وجل ما جعل الكعبة البيت الحرام إلا قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد، فبها ومن بركاتها وبأنوارها وإشراقاتها وإيحاءاتها تستقيم أمور العباد، فقد كان العرب يستخفون في جاهليتهم بالدماء ولا يعرفون لها حرمة وتقوم الحروب بينهم سنوات طوالاً لأتفه الأسباب وكانوا قبائل متناحرة لاسائس يسوسهم ولا قانون يحجز بينهم، فجعل الله الكعبة في بلادهم لتكون بينهم بمثابة السلطان الذي يحجز قويهم عن ضعيفهم ويحقن دماءهم.

وكذلك الحال بالنسبة للأشهر الحرم حيث تضع الحرب أوزارها وينعم الناس بالسكينة والسلام فتنتعش التجارة وينعم الناس بالهدوء وينعمون بالأمن حتى إن أحدهم كان يرى قاتل أبيه أو أخيه يطوف بالكعبة فلا يمسه بسوء. حتى الصيد فإنه لا يقتل وكذلك الطير فإنه لا ينفر وأيضًا النبات والشجر فإنه لا يقلع. فقد جعلهم الله يذوقون حلاوة الأمن في البلد الحرام وفي الأشهر الحرم وذلك ليتمنوا لو أن الأرض كلها كانت حرمًا آمنًا أو أن الشهور كانت كلها حرامًا وسرمدًا إلى يوم القيامة.

فالكعبة ما جعلها الله إلا للناس ومن أجلهم وقياماً بشأنهم وإصلاحًا لأمرهم يقول عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. فالله عز وجل ما أوجد البيت إلا من أجل الناس وما وضعه بينهم إلا ليحفظ لهم حياتهم وليرعى به مصالحهم.

فالكعبة الشريفة إنما هي رمز للخير ولكل ما ينفع الناس وينبغي أن تمكث في الأرض فهي صمام الأمن تمامًا مثل الحجرات النبوية الشريفة في سورتنا هذه فالحرم المكي والحرم المدني كلاهما رمز شامخ لهذا الدين الخالد بما فيه من نواهٍ وأوامر لا

غنى عنها ليسعد الناس في دنياهم وأخراهم كما بينا في غير موضع من هذا الكتاب وما علينا إلا أن نحاول فهم المرامي والمقاصد واستيعاب تعاليم هذا الدين من كل جانب والنظر إلى هذا الكون من منظور شامل ومن خلال المنهج الإلهي المتكامل.

* * *

لماذا خص الاجتناب بالنهي عن الظن

وانظر أيضًا في هذا الصدد إلى استعمال الله عز وجل لكلمة «الاجتناب» للنهي عن الظن السيئ وذلك في قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**﴾ [الحجرات: ١٢]، فإنك إذا استقرأت المواضع التي استعملت فيها هذه الكلمة في القرآن لوجدت أنها استعملت مع المحرمات وكبائر الذنوب كالإشراك بالله الذي لا يغفر الله لصاحبه ومع قول الزور الذي تضيع بسببه الحقوق، قال عز وجل: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

كما أنها استعملت أيضًا في المرحلة الأخيرة لتحريم الخمر التي هي أم الخبائث قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠].

فالاجتناب من أقوى صيغ التحريم وأوكدها فهي تدل على الحرمة المشددة أو المغلظة حتى قيل: إن لفظ «الاجتناب» أشد من لفظ «التحريم» فقد لا يتناول المرء الخمر لعلمه بأنها محرمة ولكن لا يمنعه ذلك من التواجد في مجالس يشرب فيها الخمر، لكن قوله عز وجل في شأن شرب الخمر: ﴿**فَاجْتَنِبُوهُ**﴾ [المائدة: ٩٠] إنما يدل على وجوب الابتعاد تمامًا ليس فقط عن شرب الخمر بل عن المجالس التي تدار فيها الكئوس وتحتسى فيها الخمور.

كما أنك تلاحظ أن ألفاظ النهي الواردة في السورة الكريمة إنما جاءت كلها على وتيرة واحدة بينما اختلف الأمر مع سوء الظن فهو الشيء الوحيد في السورة الذي ورد النهي في شأنه بكلمة: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ [الحجرات: ١٢] فبقية النواهي جاءت بلا الناهية مع الفعل المضارع مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] ومثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

وحتى في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها الآن وهي قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، فقد نهى الله فيها عن ثلاثة أشياء هي الظن السيئ والتجسس والغيبة فقال في شأن النهي عن التجسس والغيبة: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] بينما بدأ النواهي في الآية بكلمة: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وكان يمكن أن يقال: (اجتنبوا كثيراً من الظن والتجسس والغيبة) فيشمل الاجتناب الأمور الثلاثة كلها ولكنه خص الاجتناب للتعبير عن النهي عن الظن السيئ فقط لأنه لا يريد أن يرخص في ترك شيء منه بل المراد اجتنابه بالكلية صغيره وكبيره، قليله وكثيره ذلك لأن الظن السيئ هو مكمن الداء وأس البلاء فلولاه ما كان التجسس على العورات ولا اغتياب الناس، فإن قطعت الظنون من دابرها فقد كُبتت الفتنة في بدايتها واستؤصلت من شأفتها وأمنا العثار وكفينا شر القتال.

ولذلك قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ما أمرتكم به من شيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» فجانب النهي أشد وأقوى من جانب الأمر إذ قال فيه: (فاجتنبوه) أي: بالكلية واجعل بينك وبين ما نهى الله عنه وحرَّم مسافة كبعد المشرقين أو أزيد وإنما ذلك حتى لا تنزلق قدمك وتهوي في مكان سحيق، فكما قيل: (معظم النار من مستصغر الشرر) و(السلامة لا يعدلها شيء) فاستعمال كلمة «الاجتناب» في النهي إنما

يتماشى مع الجو العام للسورة الكريمة والذي يولي جانب الوقاية والاحتياط اهتمامًا أكثر وعناية أشد وقد أوضحنا ذلك بالتفصيل عند قوله عز وجل: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

* * *

صيغتان متشابهتان: التبين والاجتناب

ولعلك تلاحظ أيضًا أن هناك موضعًا آخر في السورة يشبه النهي عن سوء الظن حتى في صيغة التحريم والحظر وهو ما يخص نبأ الفاسق فقد قال عز وجل في سورتنا هذه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] ولم يقل: (إن جاءكم فاسق بنبأ فلا تسمعوا له أو فلا تتعجلوا في قبول خبره)، فلم يستخدم صيغة النهي الواردة في السورة وهي لا الناهية المقرونة بالفعل المضارع بل جاء بلفظ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

وهو صيغة أمر جاءت بمعنى النهي فالتبين يقتضي عدم التعجل والتسرع فخروج الكلام عن المألوف وعن أسلوب النهي المتبع في آيات السورة إنما هو أيضًا من باب تنويع الأسلوب وتلوين الخطاب وأيضًا للفت الأنظار إلى خطورة قبول نبأ الفاسق وما يترتب على ذلك من أضرار تصيب الأبرياء ويمتد خطرها ويتسع نطاقها حتى يشمل المجتمع الإسلامي كله فيحدث القتال بين فئات المؤمنين ويقع ما لا يحمد عقباه ويكون الندم بعد فوات الأوان ولذلك قال عز وجل: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، ثم رتَّب بعدها وقوع القتال بين المؤمنين.

فصيغة الأمر: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] والواردة في شأن النهي عن قبول خبر الفاسق دون تبين إنما تشبه صيغة الأمر: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ [الحجرات: ١٢] والواردة في شأن اتباع الظن السيئ فكلاهما له أوخم العواقب كما أن بينهما أيضًا وجهًا آخر للتشابه

فالأولى تتعلق بسماع نبأ الفاسق الذي يأتيك من الخارج والثانية تتعلق بسماع حديث النفس الذي يأتيك من الداخل وكلها - إن استجيب لها - فإن لها أسوأ النتائج فهي تؤدي إلى تقويض بنيان المجتمع المسلم والإتيان عليه من القواعد إذ إن الفاسق يهمس في أذنك، وهواجس الشر والظن السيئ إنما ينبعث من نفسك وكل ذلك إنما يفضي إلى الفتن الهوجاء وإلى تتبع العورات وهتك الأسرار واستباحة الحرمات وإشاعة الفحشاء فكم من ديار خربت وأرواح حصدت وفتنة وقعت وعداوات نشأت وإنما ذلك بسبب خبر كاذب من شخص فاسق أو بسبب ظن آثم.

ولذلك فعلى المسلم أن يمحص كل ظن يرد عليه من داخل نفسه كما يمحص النبأ الذي يأتيه من جهة الفاسق فهما أمران يشبه أحدهما الآخر مع اختلاف مصدرهما، فأحدهما يأتي من أهل الكذب والفسوق والآخر مصدره النفس الأمارة بالسوء.

ومن أجل ذلك فقد انفرد هذان الأمران: (نبأ الفاسق، والظن الآثم) بصيغتين تختلفان عن بقية صيغ النهي الأخرى والمطردة في آيات السورة وإنما ذلك لبيان مدى خطرهما وشدة ضررهما، وهذا أيضًا يتناسب تمامًا مع اهتمام السورة بجانب الترك والاتقاء فتركيز الآيات إنما على جانب الحظر والاجتناب أكثر من تركيزها على جانب الطلب والأمر والإنشاء وهذا يتضح أيضًا من اختيار لفظ «الحجرات» اسمًا للسورة الكريمة وقد أوضحنا ذلك عند تفسير قوله عز وجل: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] فارجع إليه إن شئت.

* * *

إحسان الظن بالمؤمنين

وقد قال الله عزوجل: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] ولم يقل: (اجتنبوا الظن كله) وما ذلك إلا لأن من الظنون ما هو مباح ومطلوب كإحسان المؤمن الظن بأخيه المؤمن: ففي حادثة الإفك التي رميت فيها عائشة أم المؤمنين بالفاحشة مع صفوان بن المعطل رضي الله عنه لمجرد أن رأوها معه يحملها علي بعيره

بعد أن تخلفت عن جيش المسلمين الذي خرجت معه فانطلقت ألسنة المنافقين تخوض في عرضها وشاركهم في ذلك بعض المؤمنين فتولى الله الدفاع عنها وأنزل براءتها وحيًا من فوق سبع سموات علَّم المؤمنين فيه كيف يتعاملون مع مثل تلك الظنون والشائعات.

وكان أول هذه الدروس التي لقنها إياهم هو قوله عز وجل: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾ [النور: ١٢] فهو سبحانه يخاطبهم بقوله: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ**﴾ [النور: ١٢] أي: سمعتموه أنتم فكان القياس أن يقول بعدها: (ظننتم) ولكنه عدل عن ذلك إلى الكلام عن الغائب فقال: ﴿**ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور: ١٢] ونسب الظن إلى المؤمنين والمؤمنات ليبين لنا أن مقتضى الإيمان إحسان الظن بإخوانك من المؤمنين والمؤمنات.

وهناك نكتة أخرى في أسلوب الالتفات المستعمل في الآية، فقوله: ﴿**لولا إذ سمعتموه**﴾ خطاب عامّ أي لكل من يستطيع السمع فقد سمع حديث الإفك كل من المؤمنين والمنافقين، أما قوله بعد ذلك: ﴿**ظَنَّ المؤمنينَ والمُؤْمناتُ بأنفُسِهم خيراً**﴾ فهو خاصٌّ بالمؤمنين، فالسمع للجميع أما إحسان الظن فلا يكون إلا من المؤمنين، وبذلك أخرج ما عداهم كالمنافقين.

وهذا ما فعله الصحابي الكريم أبو أيوب الأنصاري فإنه حينما سمع بحديث الإفك فإنه سأل امرأته: لو أنك كنت مكان عائشة أكنت تفعلين ذلك؟ فلما قالت: لا، قال: وعائشة خير منك فهي لا يمكن أن يصدر منها مثل هذا الفعل، فهو قد قاس الأمر على نفسه وأهل بيته فإذا كان أهله لا يفعلنه فمن باب أولى ألا تفعله عائشة فهي أم المؤمنين وزوجة الرسول الكريم ﷺ.

ففي الحديث المتفق عليه: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» وفي حديث مسلم: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**» فالمؤمنون كنفس

واحدة ولذا قال الله في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾[الحجرات: ١١] والإنسان لا يلمز نفسه أو يعيبها ولكن من عاب أخاه فكأنما عاب نفسه فالمؤمنون كالجسد الواحد كما في الحديث المتفق عليه: «**إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**».

* * *

التمس لأخيك الأعذار

ومن أساء الظن بأخيه المؤمن فليعلم أن هناك خللاً في إيمانه وحسْبنا أن إساءة الظن في القرآن لا تأتي إلا من المنافقين أو الكافرين والمشركين وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ [ص: ٢٧] وانظر أيضًا إلى قوله في أهل النار: ﴿**وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣]. وانظر أيضًا إلى قوله عزوجل في شأن المنافقين: ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله أيضًا: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [الفتح: ٦] ويقول أيضًا: ﴿**بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾ [الفتح: ١٢].

ولنضع نصب أعيننا هذا القول الحكيم: (ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً). فإذا كان ما رأيته من أخيك أمراً يحتمل الخير والشر فاحمله على جانب الخير وإن خطر لك خاطر سوء في حق أخيك فادع له بالخير فإن ذلك مما يغيظ الشيطان ويبعده عنك فلا يلقي إليك بعد ذلك بخاطرة سوء أخرى خوفًا من اشتغالك

بالدعاء لأخيك بالخير فالشيطان لا يريد لكما الخير فسرعان ما سيكف عنك لأن ما ألقاه في قلبك ما زادك من أخيك إلا حبًّا وقربًا.

وأيضًا إذا ما ألقى الشيطان في قلبك أن لك فضلاً على أخيك وأنه دونك، فانظر: إن كان أخوك أكبر منك سنًّا فقل: سبقني إلى الإسلام فهو خير مني وإن كان أخوك هذا أصغر منك فقل في نفسك: سبقته إلى المعاصي فهو خير مني وإن كان أخوك مساويًا لك في السن فقل: أنا على يقين من ذنبي وفي شك من أمره فلا أترك يقيني لشكي. فاليقين لا يزول بالشك والمعلوم لا يترك للموهوم، ففي كل الأحوال قل: هو أفضل مني.

وأيضًا حين ترى من هو شر منك فقل: عسى أن يكون خيره مخفيًّا ومستورًا وأن يكون شره ظاهرًا أو مكشوفًا، وقل: عسى أن يختم له بخير فالأمور بخواتيمها وأيضًا اجعل من هو أكبر منك سنًا في منزلة الوالد واجعل من يصغرك في السن في منزلة الولد واجعل المساوي لك في العمر بمنزلة الأخ، فأي هؤلاء تريد أن تهتك ستره أو تسيء به الظنون؟

وإذا نقل إليك ما لا ترضاه عن أخيك فأحسن الظن بأخيك ولا تقبل كلام الناقل فيه اتكالاً على ما تعرف من صفاء مودة أخيك ونقاء سريرته. فقد جاء رجل إلى آخر فقال له: قد جئتك خاطبًا لمودتك، فقال: قد قبلت وجعلت المهر ألا تقبل فيَّ وشاية.

وأيضًا إذا بلغك شيء من سوء عمل أخيك فلتذكر سوء أعمالك ولتبتغ لأخيك الستر كما تبتغيه لنفسك. وعليك أن تحمد لإخوانك حُسن قصدهم ونيتهم وإن لم يكن عملهم دليلاً على ذلك، فنيَّة المرء خير من عمله كما ورد في الحديث الذي رواه أبو نعيم في الحلية.

كما أنه لا يسلم أحد أو يخلو من العيوب والهنات، حتى لو كان من أهل العلم والصلاح، فلكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة، ولكن من الناس

من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، بل تُستر ولا تُذكر، فمن كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله.

قال يحيى بن معاذ: (بئس الصديق تحتاج معه إلى المداراة أو من يلجئك إلى الاعتذار) بل الصديق الحق من يلتمس لأخيه العذر قبل أن يعتذر. وأسوأ حالاً ممن لا يلتمس لأخيه العذر من يعتذر إليه أخوه فلا يقبل عذره، فطالما أنه اعتذر فقد اعترف بخطئه فعتئذٍ ينبغي العفو عن زلته وأن نُقيله من عثرته ففي حديث ابن ماجه: «من اعتذر إلى أخيه بمعذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس».

وقد كتب أخ إلى صديق له يعتذر إليه فقال: (مثلي هفا ومثلك عفا). فكتب إليه (مثلك اعتذر ومثلي غفر).

وصدق الشاعر إذ يقول:

شيمة الأكرمين عفوٌ وصفح ... كل ذنب لديكم مغفور

* * *

نملة نجا قومها بحسن ظنها

وليكن لنا في نملة سليمان عليه السلام أسوة حسنة فقد التمست للنبي سليمان عليه السلام العذر فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فقد علمت أنه نبي معصوم وأن جنده محفوظ وأنه لا يتأتى منه أذىً إلا على سبيل الخطأ والسهو لا على سبيل العمد والقصد فقد شهدت له بالخير والرحمة والشفقة ولذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها وخلد الله ذكرها قرآنًا يتلى إلى يوم الدين فمن باب أولى أن نحسن نحن الظن بإخواننا ولا سيما من كان منهم معروفًا بالصلاح ومشهودًا له بالتقوى والإيمان.

ولعلك تذكر ما أوردناه عند تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

[الحجرات: ١٠] ما قاله سليمان بن عبد الملك حينما جرب اللذات كلها ولم يبق له إلا محادثة صديق يطرح معه مئونة التكلف وأيضًا ما قاله المأمون وما قاله جعفر الصادق في شأن الأخ الصالح. وما ذلك إلا لأنك تطوي معه بساط التحفظ وتشعر معه بالطمأنينة إذ تأمن أن يؤوِّل كلامك على غير قصدك أو مرادك أو يسيئ فهمك فإنك على ثقة أنه سيحسن بك الظن وسيلتمس لك العذر.

فقد قيل لميمون بن مهران: إن فلانًا يتأخر في زيارتك فلا يزورك إلا قليلاً فقال: (إذا ثبتت المودة في القلب فلا بأس، وإن طال البعد فإنا إذا وثقنا في مودة أخينا فلا يضره أنه لا يأتينا) فإذا تأخر عنك أخوك فاذهب أنت وزره فقد يكون عنده ما يشغله ولا تنتظر حتى يزورك هو فترد الزيارة فليس المكافئ بالواصل.

وإذا بلغك شيء عن أخيك كتقصيره في حقك فالتمس له العذر فإن لم تجد فقل: لعل لأخي عذرًا لا أعرفه أو لعل له عذرًا لا يستطيع أن يصرح به فليس كل الناس يستطيع أن يقول بعذره فقد تكون هناك ظروف خاصة لا يريد أن يفصح عنها بل إنك إذا لم تعرف عذر أخيك أو أُشكل عليك وجهه عدتَ باللائمة على نفسك أَنْ خفي عليك عذره فقد كان عليك أن تتفقد دائمًا أحواله لتقوم بحقك تجاهه وحتى لا تحوجه إلى سؤالك أو إلى أن يبرر لك تصرفاته.

وقد يذهب الأخ إلى أخيه يسأله قرضًا حسنًا فيقول له أخوه: ليس عندي ما أقرضك فيظن أنه بخل عليه بماله ولم يشفق على حاله فيخاصمه ولا يكلمه بل ويشهر به عند الناس مع أنه كان الأولى به أن يحسن الظن بأخيه ويلتمس له العذر فيقول في نفسه: ربما لا يكون معه شيء يقرضني منه، أو معه شيء هو في حاجة إليه أو قد تكون له وديعة لا يستطيع أن يفكها ويعطيني منها ما طلبت وعلى كل حال إن أعطاك ما تريد فقل: هذا فضل أخذ به وإن لم يعطك فقل: هذا لذنب أحدثته فقد كان بعض السلف يقول: (إني لأعرف عقوبة ذنبي وذلك عندما يسوء خلق زوجتي أو عندما تحرن دابتي)، فهذا مما يسهل عليك عيشك ويكثر من إخوانك ويجعلك راضيًا في حياتك.

سوء الظن وبال على صاحبه

أما سوء الظن بالناس فإنه يجعل صاحبه لا يثق في أحد منهم فيخشى التعاون معهم ويتحاشى معاملتهم إذ كيف يعاملهم وهو يسيئ بهم الظن فلا بد من توفر حد أدنى من الثقة يكون بين الناس سائداً حتى يمكنهم التعامل مع بعضهم البعض.

فالذي يسيئ الظن بالناس إنما هو بظنه هذا يعيش في وحشة وعزلة ويشعر بين الناس بغربة، فالغريب من ليس له حبيب. قال علي رضي الله عنه: من لم يحْسُن ظنه استوحش من كل أحد فإنه لا يسيء الظن بالناس إلا من امتلأت نفسه بالظنون السيئة فكل إناء بالذي فيه ينضح فهو يظن أن الناس كلهم على شاكلته ولذلك فهو يتوجس منهم خيفة ويتوقع منهم الشر والمكر والخديعة فسوء الظن ما أعدله بدأ بصاحبه فأهلكه وما أصدق قول المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدَّق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بفعل عداته ... وأصبح في ليلٍ من الجهل مظلم

أما المؤمن فيعصمه إيمانه من إساءة الظن بإخوانه ولذلك قال الإمام الصَّادق: (حسن الظن أصله: من حسن إيمان المرء وسلامة صدره وعلامته: أن يرى كل ما نظر إليه بعين الطهارة وذلك بما ركب فيه من الحياء والصدق والأمانة) وصدق فإن علامة الإيمان هي سعة الصدر وسماحة القلب وصفاء النفس وحسن الظن بالآخرين، وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «حسن الظن من حسن العبادة».

وقد صحب رجل إبراهيم بن أدهم، فلمَّا أراد مفارقته قال له: لو نبهتني على ما فيَّ من العيب. فقال له إبراهيم: لم أر لك عيبًا لأني لحظتك بعين الحب، فاستحسنتُ منك كل ما رأيت.

* * *

إنكار الذات لإبقاء المعروف بين الناس

فأحسن الظن ولو صدمت في بعض الأحيان وذلك حتى يشيع الخير بين الناس فلأن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة . ولو أنك شقيت بحسن الظن خير لك من أن تشقى بسوء الظن. وحسبك أنك تتعامل مع الله تريد منه الجزاء لا من الناس.

ويحضرني في هذا المقام قصة الرجل الذي كان مسافراً في أرض فلاة وكان يركب ناقته فمر على رجل طلب منه أن يردفه معه على ناقته ولكنه غافله بعد ذلك وهرب بالناقة فناداه صاحب الناقة وقال له: (لي رجاء ألا تقص ما حدث على الناس) وذلك لأنه يخشى لو سمع الناس بذلك لما أقدم أحد منهم على فعل معروف أو إغاثة ملهوف وسيسيئ كل واحد الظن بالآخرين.

وما أجمل قول القائل يخاطب من يهواه ولكنه لا يرى منه الوفاء ومع ذلك لا يصدق فيه قول الوشاة فيقول له:

وما أنا بالمصدق فيك أمراً ولكني شقيت بحسن ظني!

فابذل الخير في أهله واصنع المعروف ولو في غير أهله فإن أصبت أهله فبها ونعمت، وإن لم تصب أهله فكن أنت له أهلاً وكن على ثقة ويقين أن نيتك لو كانت صافية وخالصة فلن تصدم فإنك لو قلت مثلاً لإنسان عاص وترجو له الهداية سأقابلك غداً إن شاء الله بالمسجد في صلاة العشاء فإنه سيحاول أن يكون عند حسن ظنك ولن يخيب رجاءك فيه، وسينصلح حاله ولو بعد حين فستبقى كلماتك في قلبه ولن تذهب أدراج الرياح.

وحتى لو ضاعت حظوظك في الدنيا وحسنت ظنونك كصاحب الناقة الذي ذكرنا قصته منذ قليل وما أظنها كلها تضيع ـ فسيعوضك ربك خيراً من ذلك، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة والآخرة خير وأبقى فالعاقبة عند ربك للمتقين.

متى يكون سوء الظن عصمة؟

فالمؤمن ـ كما رأينا ـ يحسن الظن لأنه يرى الخلق بعين الطهر وبما وقر في قلبه من حب الخير فهو يلتمس للآخرين العذر ويحسن بهم الظن وذلك لسلامة قلبه بينما المنافق يطلب العيوب ويبحث عن الزلات وذلك لسوء طويته وخبث نفسه.

ولكن حسن الظن بالناس ليس معناه الغفلة أو ترك الحذر والاحتياط فلا بأس من أن نسيئ الظن إذا كان المظنون به ظاهر الفسق مجاهراً بالمعاصي فسوء الظن مطلوب في مثل هذه المواطن وذلك لاتقاء شر هؤلاء ولحفظ النفس أو المال وذلك باتخاذ الأسباب الكفيلة بحفظ الحقوق والأموال.

وكذلك ينبغي الفطنة والحذر عند التعرف على وجوه الكسب والمعايش ولإصلاح شئون الحياة ولاسيما في أوقات الفتن أو عند فساد الذمم وتدني الأخلاق وعند التعامل مع أهل الفسق والضلال ممن لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ويودون لو تصيب المؤمنين غفلة فيميلون عليهم شر ميلة.

فمع أمثال هؤلاء لا بد من اليقظة والانتباه وسوء الظن والحذر في التعامل معهم وفي الحكمة: (حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة) وأيضًا قول القائل: (احترسوا من الناس بسوء الظن) وكن كعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان يقول: (لست بالخب ولكن الخب لا يخدعني).

* * *

إياك ومواطن التهم

ولكن كما يطلب من المؤمن أن يحسن الظن بأخيه المؤمن وأن يلتمس له العذر فلا ينبغي أيضًا للمؤمن أن يضع نفسه في مواضع التهم أو الريبة أو الشبهة حتى لا يكون سببًا في إساءة الظن به ففي حديث الشيخين وأبي داود: أن صفية أم المؤمنين زارت

النبي ﷺ وهو معتكف بالمسجد فقام معها إلى الباب ليودعها فرآه اثنان من الصحابة فأسرعا في مشيهما فقال لهما النبي ﷺ: «**على رسلكما إنها صفية زوجي**»، فقالا: سبحان الله أنظن بك السوء يا رسول الله؟ فقال: «**إني خشيت أن يلقي الشيطان في قلوبكما شراً**».

فلا ينبغي للمؤمن أن يضع نفسه موضع الريبة حتى لا يأثم أخوه بسببه وذلك حين يظن به سوءاً فمن وضع نفسه مواضع التهم فلا يلومن إلا نفسه وما أجمل قول علي رضي الله عنه والذي ذكرناه من قبل: (إياك أن تتكلم بما سبق إلى القلب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره فليس كل من تسمعه شراً يمكنك أن توسعه عذراً)! فإياك ومما يعتذر منه.

والمؤمن بطبيعته لا يحب اللبس أو الغموض ولا يميل إلى اللف والدوران أو ليّ اللسان أو تحريف الكلم عن مواضعه كما أنه لا يُظهر غير ما يبطن أو يضمر فهو ليس بوجهين أو لسانين بل هو واضح في أقواله مستقيم في أفعاله حتى لا يؤوّل كلامه تأويلا غير الذي كان يقصده أو غير الذي كان يدور في خاطره.

وكذلك فهو لا يستعمل الكلمات الغامضة أو ذات المعاني المتناقضة حتى لا يحار الناس في شأنه أو يسيئون به الظن وقد نهانا الله أن نكون مثل اليهود الذين يجيدون اللعب بالكلمات واستعمال الألفاظ التي تثير البلبلة والشبهات فقال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾ [البقرة: ١٠٤].

* * *

العمل بالأدلة الظنية

وقد قال الله عز وجل: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ** ﴾ [الحجرات: ١٢] ولم يقل عز وجل: (اجتنبوه الظن كله) لأن من الظنون ما هو مباح. فمن الظن المباح استنباط بعض أحكام الدين عند تعذر وجود الدليل القطعي فيؤخذ بالدليل الظني كالشك مثلا في جهة القبلة كأن يلتبس الأمر على المؤمن في جهة القبلة ويتعذر عليه الوقوف على الحقيقة أو القطع بجهة معينة فهنا يلزمه الاجتهاد والتحري ثم يصلي إلى الجهة

التي غلب عليه ظنه أنها جهة القبلة وكذلك مَن غلب على ظنه غروب الشمس أفطر ومن غلب على ظنه دخول الوقت صلى فالحكم في هذه الأمور بالأمارات الظنية وليس بالدلالات القطعية وذلك من باب التيسير على الناس ورفع الحرج والمشقة عنهم.

* * *

حسن الظن بالله

وكما أن إحسان الظن بالمؤمنين هو من الظن الحسن المأمور به المؤمن فإنه أيضًا من هذا الظن المأمور به إحسان الظن بالله عز وجل : فلا تظن بربك إلا خيراً فإذا ما أطعت الله فيما أمرك به ونهاك تظن بالله أن يقبل عملك ويثيبك عليه خيراً، وإذا دعوته تظن به أن يستجيب دعاءك فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذ دعاه وإذا استغفرته ظننت به أن يغفر لك ذنوبك مهما بلغت ولا تقنط من رحمة الله الواسعة فالله أكرم مِن أن يرد عبده أو يخيب رجاء مَن ظن به خيراً.

ففي حديث الطبراني أن النبي ﷺ قال: «**والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله الظن إلا أعطاه ظنه ذلك فإن الخير بيده سبحانه وتعالى**». وفي حديث مسلم وابن حبان: «**يخرج رجلان من النار فيعرضان على الله ثم يؤمر بهما إلى النار مرة أخرى فيلتفت أحدهما فيقول: يا رب ما كان هذا رجائي فيقول الله وهو أعلم: وما كان رجاؤك؟ قال: كان رجائي إذ أخرجتني من النار ألا تعيدني فيها فينجيه الله منها ويدخله الجنة برحمته**».

وعن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**» والحديث رواه مسلم في «صحيحه»، وفي الحديث المتفق عليه عن رب العزة: «أنا عند ظن عبدي بي» وفي حديث الترمذي: «**قال الله تعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت**

لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لاتشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» .

وما أجمل قول الشاعر :

إلهي لا تعذبني فإني ... مُقِرٌّ بالذي كان مني

وما لي حيلةٌ إلا رجائي ... وعفوك إن عفوت وحُسن ظني

فكم من زلة لي في البرايا ... وأنت عليَّ ذو فضل ومنِّ

إذا فكرت في ندمي عليها ... عضضتُ أناملي وقرعت سني

يظن الناس بي خيرًا وإني ... لشرُّ الناس إن لم تعفُ عني

* * *

لماذا نهينا عن التجسس؟

ثم جاء النهي الثاني في الآية الكريمة عن التجسس فقال عز وجل : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] . والتجسس هو المرحلة التالية بعد مرحلة سوء الظن فإن الإنسان حينما يمر بباله خاطرة سوء نحو أخيه فإنه يميل إلى إثبات ذلك وتحقيق ظنه السيئ وذلك بالتجسس عليه لعله يظفر بشيء يُرضي به قلبه المريض وظنونه السقيمة .

والتجسس : هو تتبع العورات والبحث عن العثرات في الخفاء وأصله : من «الجسّ» وهو مسّ العِرق والتعرف على نبضه للحكم به على الصحة والسقم كما يفعل الطبيب ثم نُقل إلى مطلق التعرف ومنه اشتق لفظ الجاسوس . وقيل : هو من «الجَوْس» أي طلب الشيء بالاستقصاء والتردد خلال الديار والطواف فيها للغارة والقتل كما في قوله عز وجل : ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء : ٥] .

وقد نهى الإسلام عن التجسس لأنه من حق المرء أن يخلو بنفسه وأن يأمن في بيته فيضع ثيابه أو يتخفف منها وهو آمن أن يطلع عليه أحد كما أنه ليس من حق أحد أن يراقبه في خلواته ويحصي عليه حركاته حتى يكون هو الذي يجاهر بذنبه أو يكشف ستر نفسه فالذي لا يجاهر بذنبه فإن ضرر ذلك يقتصر عليه ولا يتعداه إلى غيره فيبقى بذلك في أضيق الحدود بخلاف المجاهرين بالمعاصي الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس.

فالتجسس يشيع الفاحشة في المجتمع فالمستتر بالمعصية لا يزال عنده حياء من الناس ولا تزال فيه بقية من خير وإيمان فهو وإن غلبت عليه نفسه فإنه يفعل المعصية بعيداً عن أعين الناس وذلك حتى لا يراه أحد فيقلده في ارتكاب المعاصي.

أما إذا تجسس عليه الناس وكشفوا أمره وهتكوا ستره وأذاعوا سره انتشرت المعاصي بين الناس فلا يبالي عندئذ أحد بارتكاب المعصية فالكل الآن يفعلها ولا ينكر عليهم أحد فالكل في فعل المعاصي سواء وبذلك تشيع الفاحشة بين الناس لأن شيوع الفاحشة في المجتمع يجعل الناس لا يكترثون بفعل المعاصي، فهم يرون غيرهم يفعل ذلك نهاراً جهاراً فيشجعهم ذلك على فعلها دون تردد أو خوف من نقد أو لوم أو عتاب.

فالخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها، أما إذا أُعلنت فلم تُنكر فإنها تضر العامة. فانتشار الفاحشة يدفع بضعاف النفوس الذين ما منعهم من ارتكاب الفاحشة إلا الخوف من إنكار الناس عليهم، فإذا لم يجدوا إنكاراً من أحد على من ارتكب الفاحشة اندفعوا في ارتكابها دون حرج أو حياء.

وإياك أن تشارك في إشاعة الفواحش بلسانك، بل اسكت عنها حتى تموت فكم من كلمة ماتت بالسكوت عنها، ولكن أن تقوم أنت بنقلها ثم يقوم من سمعها منك بنقلها عنك دون تثبت أو تبين حتى تنتشر بين الناس، وحتى مع التثبت والتبين فإنه لا يجوز نقلها فليس كل ما علمناه ننقله ونتكلم به ولا سيما إذا كان سيترتب على ذلك

مضرة أو مفسدة، ولا أضرَّ من مفسدة شيوع الفاحشة بين الناس، فليس كل ما يُعرف يُقال، وحسب امرئ من الشر أن يُحدث بكل ما سمعت أُذناه.

ولنا في رسول اللَّه ﷺ أسوة حسنة، فقد كان إذا رأىٰ أحدًا يرتكب ذنبًا فإنه كان يقول كما في حديث النسائي: «**ما بال أقوام يقولون أو يفعلون كذا**» ولا يقول له: أنت فعلت كذا، بل يأتي بنصيحة عامة ينتفع بها كل من سمعها دون أن يشير إلىٰ واحد بعينه فيكون ذلك هتكًا لستره.

وأنت أيضًا إذا رأيت من يرتكب معصية فإياك أن تقوم بفضحه وهتك ستره، فإنك بذلك تعين عليه الشيطان، لأنه سيتجرأ بعد ذلك ويجاهر بفعل المعاصي والآثام ولا سيما إذا لم يكن له علىٰ الخير أعوان، أو ليس له رادع من إيمان، بل استر عليه، وقم بنصحه فيما بينك وبينه، فالستر علاج عظيم لكثير من العيوب وأمراض النفوس، فستر عيوب الناس يؤدي إلىٰ إشاعة المحبة والتعاطف فيما بينهم.

* * *

إذا بليتم فاستتروا

ولكن حينما يستتر العصاة ويفعلون معاصيهم في الخفاء، فيستحي العاصي أن يكون أول من جهر بالمعصية حتىٰ لا يتعرض للوم والمؤاخذة من الناس، وفي هذا خير إذ فيه حبس للمعصية في أضيق نطاق كما إن هذا العاصي قد تحدثه نفسه بترك المعاصي فهو لا يزال حاله مستوراً بين الناس ولا يزال عنده فرصة للتوبة والإقلاع.

وحتىٰ وإن كانت نفسه تراوده علىٰ فعل المعاصي وتغلبه علىٰ اقترافها فإنه لا يستسلم لها بل يجاهدها ويحاول أن يخالفها فهو يرجىٰ له الخير ومن هنا كان هذا القول الحكيم: (إذا بليتم فاستتروا) ولعل هذا القول مأخوذ من حديث الترمذي ومالك: «**من أتى شيئًا من هذه القاذورات** ـ أي: المعاصي والذنوب ـ **فليستتر**» أي:

حتى لا يراكم أحد من ضعاف النفوس وأنتم تفعلون المعاصي فيقول: فلان وفلان وغيرهما من الناس يفعلون المعاصي فلماذا لا أفعل أنا مثلهم؟

ومن ثمَّ فقد جاء الوعيد الشديد لمن يجاهر بالمعاصي، ففي الحديث المتفق عليه: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره اللَّه فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر اللَّه عنه**».

وهكذا تشيع الفاحشة بين أفراد المجتمع ولا يبقى لأحد حرمة أو مكانة محترمة أو كلمة مسموعة أو مهابة إذ كيف ينهى عن المعصية وهو يأتيها ولذلك ورد في الحديث العظيم الذي رواه أبو داود عن معاوية بن أبي سفيان رضي اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم**»، وقد انتفع معاوية رضي اللَّه عنه بهذا الحديث الذي سمعه من رسول اللَّه ﷺ وقام بنقله إلينا، فكان له منه النصيب الأوفى ولا سيما بعد تولِّيه الخلافة، فكان يحب إقالة العثرات والحلم عن الجهال، والستر على العورات، فهو القائل: (إني لأستحيي من ربي أن يكون هناك ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو حاجة لا يسعها كرمي، أو عورة لا أواريها بستري).

وورد أيضًا في الترهيب عن التجسس ما رواه الترمذي وابن ماجه: أن الرسول ﷺ صعد المنبر فنادى بصوت رفيع سمعته العواتق في البيوت: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن مَن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في قعر بيته**» وفي رواية: «**ولو في جوف رحله**» فالجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان ولذلك ورد في الدعاء«**اللهم آمن روعتنا واستر عورتنا**».

وعن مجاهد في تفسير قوله عز وجل: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾ [الحجرات: ١٢] قال: (أي خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستره الله عنكم) فالنهي عن التجسس يقتضي الحكم

بالظاهر دون التفتيش أو التنقيب عما خفي عنك من حال أخيك فالتجسس وتتبع العورات وهتك الحرمات وكشف العورات إنما يولد في المجتمع الأحقاد ويزرع فيه بذور العداوة والشقاق إذ يشعر المتجسس عليه أنه مراقب وأنه ينظر إليه بعين الشك والارتياب والمرء حينما يشعر أنه ملاحق فإنه يشعر بالقلق والضيق والحرج بل وبالخوف وعدم الأمان.

* * *

البيوت لها حرمة

كما إن البيوت لها حرمة لا يجوز اقتحامها أو تسورها أو دخولها من غير أبوابها أو بدون إذن أهلها كما بينت ذلك آيات سورة النور وللناس حرماتهم وعوراتهم التي لا ينبغي أن تنتهك أو تمس بل يعيش الناس آمنين على أنفسهم وبيوتهم وأسرارهم وعوراتهم.

ومن ثم فالتجسس خلق ذميم يدفع صاحبه إلى التلصص على عورات الآخرين والتنصت على أسرارهم إما بدافع التطفل والفضول ليقال إنه يعرف كل شيء وإنه مطلع على خبايا الأمور عليم ببواطنها فيتباهى بذلك وإما بدافع الغضب والرغبة في الانتقام والتشفي وإيقاع الأذى بالناس.

فترى المتجسس يسترق السمع إلي حديث أخيه وهو لا يشعر أو يقرأ رسائله وهو غافل عنه. وقد يقتحم حرمة بيته باستخدام منظار مكبر أو يضع آلة لنقل الصوت وما أكثر هذه الوسائل في زماننا هذا كالمسجلات وعدسات التصوير بل أصبح التجسس الآن يتم بالأقمار الصناعية التي تخترق الجدران وتهتك الأستار فيرى المرء من خلالها ما لا يحل له أن يراه ويسمع ما يحرم عليه سماعه مما يكون سببًا في إلحاق بالغ الضرر بالأبرياء.

ومن هنا فقد قال النبي ﷺ في حديث البخاري: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون فقد صب الله في أذنه الآنك يوم القيامة»، والآنك: هو الرصاص المصهور وأيضًا في الحديث المتفق عليه: «من اطلع على بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينيه» وذلك لأنه اطلع على ما لا يحل له وإنما جعل الاستئذان قبل دخول البيوت من أجل البصر كما في الحديث المتفق عليه. وقد روى الشيخان أيضًا: أن رجلاً اطلع من حجر في باب النبي ﷺ وكان معه مدرى يحك به رأسه (وفي رواية: كان معه مشقص وهو: نصل السهم) فقال له النبي ﷺ: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك» وقد شرحنا هذا الحديث وغيره عند تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ١٤].

فلا جناح عليك أو دية إن فقأت عين هذا المعتدي بل تذهب عينه هدرًا جزاء وفاقًا ولا ضمان على صاحب البيت ولا قصاص فالمتجسس آثم وظالم ومعتد وخائن لا يريد أن يترك عباد الله تحت ستر الله فيحاول الاطلاع عليهم وهتك سترهم حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه لكان أسلم لقلبه ودينه؛ لأن ذلك سيجره حتمًا إلى الاغتياب وذكر عيوب الناس وكان الأولى به أن يستر عليهم وفي الحديث الذي رواه مسلم: «لا يستر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة» وفي رواية: «ستره الله في الدنيا والآخرة» فالستر على الناس يؤجر عليه العبد ويثاب ولا سيما على من عرف منهم بالصلاح.

والله ستيِّر يحب الستر على عباده ففي حديث أحمد وأبي داود والنسائي: «إن اللَّه حييٌّ ستِّير يحب الحياء والستر»، وأيضًا الحديث المتفق عليه: «يُدنَى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقرره بذنوبه: فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: يارب أعرف حتى إذا ظنّ العبد في نفسه أنه هالك لا محالة قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته بيمينه».

نسألك اللهم سترك في الدنيا والآخرة.

الغيبة فاكهة المجالس

والآن مع النهي الثالث في الآية الكريمة وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات: ١٢] والغيبة كما عرّفها العلماء: هي ذكرك أخاك في غيابه بما يكره كأن تتكلم عن إنسان مستور الحال بما فيه من عيوب ولكن من غير ضرورة تقتضي ذكر ذلك ولو سمعه لأغمه وفي تعريف موجز: هي ذكر العيب بظهر الغيب وهذه التعاريف مأخوذة من حديث مسلم حين سأل الرسول ﷺ أصحابه: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**».

ومما يؤسف له أن الغيبة قد انتشرت حتى أصبحت فاكهة المجالس فلا يحلو الحديث إلا بهاوأصبح الكثير يخوضون في أعراض الناس دون أن يشعروا بقبح ذلك أو إثمه وإذا نبهت أحدهم إلى خطورة ذلك وأنه يأتي كبيرة، يقول: إن الذي نذكر من العيوب موجود في الشخص الذي نتكلم عنه فنحن لانفتري عليه الكذب أو نأتي بشيء من عند أنفسنا فنحن نقول: إنه غشاش أو مخادع أو خبيث وهو كذلك وأمثال هؤلاء نرد عليهم بحديث مسلم عن تعريف الغيبة. وهناك أيضًا مَنْ إذا نهيته يقول: أنا على استعداد لأن أقول هذا الكلام أمامه. ومثل هذا يقال له: حتى لو كنت مستعدًّا لذلك فإن هذا ليس مبرراً يعطيك الحق في أن تذكره في غيابه بما يكره بل اذهب إليه وتكلم معه طالما أن هذا في إمكانك وطالما أنك تستطيع أن تتكلم أمامه فلماذا تتكلم من ورائه أو في غيابه فإنك لو تكلمت من ورائه تكلمت وعليك وزر ولو تكلمت أمامه تكلمت ولك بذلك أجر لأنك ستقوم بنصحه وتوضيح الأمر له بالتي هي أحسن فالمؤمن ليس بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش البذيء.

كما أن القول: (أنا أستطيع الكلام أمامه) إنما هو من تلبيس إبليس ليهون عليك

أمر الوقوع في الغيبة المحرمة فكثيراً ما يقول الإنسان: أنا أقول للأعور أنت أعور أمامه.

ولكن عند المواجهة يتغير الموقف ويتراجع المغتاب ويجبن عن المصارحة بل يبتسم في وجهك ويظهر لك المودة والاحترام وهذا من خلق المنافقين حتى إذا ما أعطيته ظهرك طعنك من خلفك ولو كان شجاعًا لذكرك بما فيك أمامك.

وفي مثل هذا يقول الشاعر:

فإن لاقيته عظمني وإذا يخلو له لحمي رتع

ولذلك فمن الأفضل ذكر ذلك أمام صاحب الشأن بدلاً من أن ينقل إليه هذا الكلام ولن تعدم أحدًا ينقل ـ متطوعًا ـ خبرًا لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، فتكون في موقف لا تحسد عليه فقد يدفعك الحرج لأن تكذب وتقول: (أنا لم أقل ذلك) فتجمع بين إثمين: الكذب والغيبة وقد كنت في غنى عن ذلك لو أنك صارحته.

وهكذا تجرنا الغيبة إلى الكذب وإلى ما لا يحمد عقباه. فمن نتائجها الخطيرة زوال المحبة بين الناس ويحل محلها العداوة والبغضاء وفقدان الثقة وإشاعة الفاحشة بين الناس فلو أن إنسانًا سمع أنك تغتابه فهو لا يسكت بل يحمله ذلك على أن يقوم هو أيضًا باغتيابك انتقامًا لنفسه فإذا سمعت أنت أنه يغتابك تأخذك العزة بالإثم وتغضب منه وتحقد عليه أكثر وتقوم بالرد عليه ولن تترك فيه عيبًا إلا ذكرته وسعيت في نشره وكذلك يفعل هو حتى تسوء العلاقة بينكما فإذا ما تقدم أحد لإصلاح ذات البين يحتج كل منهما بقوله: (لقد قال عني كذا كذا فوالله لا أصطلح معه أبدًا بعد ما قال فيَّ ما قال). فيخرج الأمر عن السيطرة ويتسع الخرق على الراقع ويحدث الهجر والتخاصم.

* * *

ضرر الغيبة وعواقبها الوخيمة

وقد يقول قائل: كيف تشيع الفاحشة في الأمة مع أن المغتاب حين يذكر صاحب الذنب فإنما يذكره بذنبه الذي فيه؟

والجواب: أنه إن كان مجاهراً بمعصيته فهنا رخص العلماء في التكلم في شأنه تحذيراً للناس من فسقه وعَدُّوا هذه الحالة استثناء من الغيبة لأنه هو الذي هتك ستره بنفسه أما إذا كان لا يجاهر بمعصيته بل يخفيها فمعنى ذلك أنه يعدها أمراً قبيحًا وأنه يعلم أنها معصية وأنه ينوي الإقلاع عنها وإن كان يسوف التوبة منها لأنه مغلوب على أمره تسيطر عليه أهواء نفسه.

ومع ذلك فهو لا ييأس من رحمة ربه بل يتطلع إلى اليوم الذي يتخلص فيه من معصيته فهو بذلك يُرجَى أن يختم له بخير والدليل على ذلك أنه يتكتم ما يأتي من المعاصي ولا يبديه، ومثل هذا لا ينبغي أن يفضح أو يكشف له ستر لأننا إن نحن فعلنا ذلك وبلغه أنه قد انتهكت حرمته أمام الناس وأنهم قد اطلعوا على عيوبه التي كان يخفيها عنهم فإنه لن يحاول سترها منهم بل سيجاهر بها، كما يقول المثل السائر: (ضربوا الأعور على عينه فقال: خسرانة خسرانة)!

وعندئذٍ تظهر العواقب الوخيمة للغيبة لأنه إذا رأى الناس من يرتكب المعاصي جهاراً فإنهم لن يتحرجوا في الاقتداء بهم وأن يحذوا حذوهم، وهكذا تشيع الفحشاء في المجتمع بعد أن زالت تلك الهيبة التي كانت للمعاصي في النفوس فانتشار المعايب والمساوئ في المجتمع تشجيع للناس على الاستهانة بها وارتكاب مثلها أو أشد منها مما يؤدي إلى فساد العلاقات بين الناس وأن تحل بينهم العداوة والشقاق بدلاً من مشاعر المودة والإخاء.

* * *

لو تكاشفتم لما تعاشرتم

ومن ثَمّ فينبغي أن نستر على من ستر على نفسه ولا نهتك هذا الستر الذي ألقاه الله على عيوب الناس ليتحقق ما أراده الله وهو أن يكون بين الناس التآلف والتعاون. ولو أنهم كشفوا ستر الله عنهم لحل بينهم التباغض والتدابر ولساءت أخلاقهم وضاقت صدورهم وتعذرت حياتهم وما أصدق قول القائل: (لو تكاشفتم لما تعاشرتم) فلا بد من الستر حتى تدوم العشرة بين الناس.

وهكذا رأينا كيف تؤدي الغيبة إلى إشاعة الفاحشة في المجتمع فضلاً عن كونها تفسد العلاقات بين الناس وتزعزع الثقة بينهم، فمن الأمور المسلم بها أنه لا يتصور أن تقوم لأي مجتمع قائمة إلا وكل فرد من أفراده يحظى فيه بمكانة اجتماعية تكفل له أن يتعامل معه الآخرون على أساس من الثقة والتقدير.

ولكن هذا الأساس ينهار وتهتز تلك المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها بين الناس إذا تعرضت سمعته للقيل والقال، ونيل من عرضه وكرامته وذلك عن طريق الغيبة وذكر عيوبه والتشهير به مما يسقط منزلته من أعين الناس فيحذر الناس معاملته ويتحاشون مخالطته وبذلك يفقد المجتمع لبنة من لبناته ولا تقف الخسارة عند هذا الحد بل يستمر تساقط بقية اللبنات ما بقيت الغيبة في المجتمع تنخر بنيانه وتقوض أركانه حتى تأتي عليه من القواعد.

وهكذا حين صان الإسلام كرامة أبنائه فإنه بذلك حقق لهم الأمن الكامل فلا تهتك لهم حرمة باستعمال قول جارح أو ظن آثم أو تجسس ظالم أو ذكر للعيوب والمثالب فاغتياب الإنسان بمثابة اغتيال لشخصه بل هو أشد من ذلك فهو سحق لكرامته وقتل معنوي له لا يقل ألمًا ولا بشاعة عن الذبح بالسكين.

ولذلك أوجب الله علينا صيانة الأعراض وفرض لها حرمة وذمة، فدافع الله عز

وجل عن مريم عليها السلام حينما اتُّهمت بالفاحشة وأنطق الله وليدها الرضيع عيسى عليه السلام ليبرئ ساحتها وكذلك أنزل الله آيات محكمات تدافع عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه حينما خاض في عرضها الخائضون. وكذلك أنطق الطفل الرضيع ليبرئ ساحة جريج العابد كما ورد في الحديث المتفق عليه.

* * *

من دوافع الغيبة

ومن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى الغيبة المنافسة في أمور الدنيا من جاه وغنى وسلطان فالراغب في هذا الأمور يرى أن فلانًا ينافسه فيها فيذكره بالسوء مقللاً لشأنه لتسقط مكانته عند الناس ولينفرد هو بالحظوة والمكانة لديهم ولذلك فالأسواق هي أكثر الأماكن التي تنتشر فيها الغيبة لما فيها من المنافسة بين التجار وما يتولد عنها من مشاعر الحسد والضغائن والبغضاء.

وقد ساهمت الحضارة الحديثة في انتشار الغيبة إذ أوهمت الناس أن السعادة في الحصول على الماديات واقتناء الكماليات فراح الناس يتنافسون في امتلاك هذه الأشياء وحيازتها وكذلك بما وفرته الحضارة من أوقات الفراغ التي شغلها الناس بالتسلية والقيل والقال والخوض في أعراض الناس بدلاً من تزكية النفوس والتفقه في الدين ومعرفة خطورة اغتياب الآخرين.

ومن دوافع الغيبة أيضًا التنفيس وأن يشفي المغتاب غليله وذلك بذكر مساوئ من أغضبه فهو يضمر له الكراهية ولكنه لا يريد أن يظهر له ذلك لئلا يخسر بعض مصالحه فيسكت حتى إذا غاب من يكرهه قام باغتيابه تنفيسًا عن كراهيته له فيذكر عيوبه أمام الناس وهو يظن أنهم لن يبلغوه ولكن الغيبة لا تبقى سرًّا فقد قَلَّ في الناس من يكتم خبرًا.

ومن دوافع الغيبة أيضًا الحقد والحسد فإذا رأىٰ المغتاب الناس يذكرون غيره بالخير فيقوم هو بذكر عيوبه أمامهم ليثنيهم عن مدحه ومحبته وليظهر فضله وسلامته من تلك العيوب فهو بذلك يبرر للناس ما فيه من العيوب وذلك بذكر عيوب الآخرين ليخف عليه إنكارهم حينما يرون أن من يجلونه له من العيوب مثل عيوبه أو أكثر.

ومن دوافعها أيضًا مجاراة من حوله ومجاملتهم وذلك بموافقتهم علىٰ ذكر ما في أخيهم من العيوب مع علمه أنه بريء منها أو علمه بخطورة الغيبة وحرمتها وذلك خشية أنه لو لم يشاركهم في باطلهم أو لو أنكر عليهم ما يقولون لاستثقلوه ونفروا منه ولذلك فهو يخوض معهم ويضحكهم ليكسب مودتهم الزائلة ولو كان يفعل ذلك علىٰ حساب كرامة أخيه.

وأيضًا قد يقع المرء في الغيبة تملقًا لذي سلطان أو تزلفًا لمن له عنده حاجة يريد قضاءها فينهش في عِرض أخيه من أجل عَرَض من الدنيا زائل تفنىٰ لذته وتبقىٰ تبعته أو من أجل لقيمات يقذف بهنّ في جوفه وفي حديث أبي داود: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن اللَّه يطعمه مثلها في جهنم».

* * *

الغيبة بالإشارة

والغيبة إنما تكون باللفظ أو الرمز أو بالعبارة أوالإشارة أو بالتصريح أو التلميح والتعريض لأن العلة في النهي عنها قد حدثت وهي الإيذاء فإذا حدث ذلك علىٰ أي وجه كان بحيث يفهم منه الإيذاء والانتقاص من أعراض الناس فهو من الغيبة الحرام.

فالأساس في الغيبة أنها باللسان ولكنها تشمل أيضًا ما يقوم مقام اللسان في تحقيق الغرض من الغيبة وهو الإيذاء كالمحاكاة بغرض الاستهزاء والإضحاك، فحتىٰ لو لم تذكر الاسم بل اكتفيت بالوصف وفهم المخاطب من تقصد فهو من الغيبة المحرمة والمنهي عنها.

وقد استدل العلماء على أن الغيبة تقع بغير اللسان بهذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا (تعني أنها قصيرة) فقال لها: «**لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته**» وقالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: «**ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا كذا**» أي: من المال في مقابل محاكاة الناس والحط من شأنهم.

ومعنى «مزجته» أي هذه الكلمة على فرض تجسيدها وتحولها إلى قطرة ماء ثم ألقي بها في البحر بحيث لو خالطت ماء البحر لتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها وقولها: «وحكيت له إنسانًا» أي قلدت له حركة إنسان كأن تمشي مثلاً مثل مشيته على سبيل الإضحاك والاستهزاء. وهذا الحديث وحده ـ كما يقول النووي ـ يدل على أن الغيبة من أكبر الكبائر وأنها من أشد المحرمات التي ينبغي أن يتحاشاها المؤمن. وقد استفادت السيدة عائشة من هذا التوجيه النبوي الكريم، فقد كانت أعرابية تزورها في بيتها وكان ثوبها طويلاً، فلمَّا خرجت من عندها وهي تجر ذيلها قالت امرأة: ما أطول ذيلها! فقالت عائشة لها: لقد اغتبتها، فأدركيها تستغفر لك.

فالعِرض ليس فقط هو الموضع الذي يتعرض للقذف بالفاحشة أو الذي يسلم منها بل هو أوسع مجالاً من ذلك فهو لا يتعلق فقط بما يخدش العفة ولكنه كل موضع في الإنسان قابل للقدح أو المدح أي كل ما يتأذى منه ويشمل ذلك شكله ومشيته وصفاته وأولاده وغير ذلك، فهو جانبه الذي يصونه من نفسه ويحامي عنه أن يُنتقص أو يرمى بسوء.

والتعريض بالغيبة وذكر عيوب الشخص إن لم يفهم منه من المقصود به فهو لا يُعد من الغيبة؛ فإن النبي ﷺ كان إذا كره شيئًا قال كما في حديث النسائي: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**»، ولكن إذا كان التعريض قريبًا من التصريح أو في معناه بحيث يفهم منه السامع أن القائل يقصد فلانًا بكلامه هذا فإنه يعد من الغيبة المحرمة وحكمه حكم التصريح؛ لأن الضرر في الحالتين حاصل.

ومثال ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، والبهتان هو الافتراء والكذب، وأن تذكر أخاك بما ليس فيه، والمقصود بالبهتان العظيم في هذه الآية هو قولهم تعريضًا بمريم عليها السلام ما ذكره اللَّه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، فقصدهم من نفي هذا الوصف عن أبيها وأمها هو إلصاقه بها.

وقد جلد عمر رضي اللَّه عنه رجلاً قال لآخر: (ما أنا بزانٍ ولا أمي بزانية)! ومقصده أنك أنت كذلك. ومثل ذلك أن يُقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: هدانا اللَّه وإياه، وغفر لنا وله، نسأل اللَّه العافية.

* * *

الغيبة بالصمت

وقد تكون الغيبة بدون كلام لا بالعبارة ولا بالإشارة أي بالصمت كأن يسمع الشخص إنسانًا يغتاب شخصًا آخر ثم يلوذ بالصمت ولا ينطق ببنت شفة وكان الأَوْلى به أن يدافع عن عرض أخيه في غيابه. فالمستمع والمغتاب في هذه الحالة يكونان في الإثم سواء وهما في الوزر شريكان ففي قصة «ماعز الأسلمي» رضي الله عنه والتي رواها أبو داود أنه طلب من رسول الله ﷺ أن يطهره من الزنا فلما أمر النبي ﷺ برجمه سمع رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجم الكلب.

ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار، فقال: **«أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار»** فقالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا؟ فقال: **«فما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلاً منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»**.